حديث اليوم

أمثلة

لم أكن اذا مخطئا ولا مسرفا حين قدرت أن رئيس وزرائنا سيستفيد من زيارته لروما ، وسيقوم من عظيم ايطاليا السنيور موسوليني مقام التلميذ النجيب من الاستاذ البارع . فرئيس الوزراء نفسه يسجل هذه التلمذة في رسالته البرقية التي يودع بها استاذه قبل أن يفارق أرض ايطاليا الجميلة .

رئيس الوزراء يعلن انه معجب أشد الإعجاب بما بلغته ايطاليا من الرقى المادي (والادبى) بهمة موسوليني وعبقريته ، وانه وهو يمثل أمة صديقة لإيطاليا يغتبط بهذه الحقيقة ويلتمس في أعمال موسوليني أمثلة صالحة . هو اذاً معجب بموسوليني ولا جناح عليه في هذا الاعجاب ؛ وكل انسان حر فيما يحب ويكره ، وهو اذا يلتمس في أعمال العظيم الايطالي أمثلة صالحة ، وهو كذلك حر لم يتجاوز حقه ولم يعد طوره ؛ فلكل انسان أن يختار القدوة التي يريد أن يقتدى بها ، والاسوة التي يريد أن يتأساها . وهو يعجب بموسوليني ويتخذه قدوة لا عن نفسه وحدها ، بل عنها وعن مصر كافة ؛ فرئيس الوزراء يمثلنا جميعا ، وهو لا يسألنا عن رأينا فى هذا التمثيل ولا يعنيه أن ترضى به أو نسخط عليه . وهو صادق فيما يدعى من تمثيله ايانا وأنا أول من يشهد بصدقه ، ويؤمن بتمثيله لمصر . وآية ذلك انى ان تهمته بانه يقول غير الحق ، أو شككت في تمثيله لمصر أو أنكرت انى أثق به وأطمئن اليه ؛ فأمر السياسة وأمرى الى من تعلم ؛ ممن لا نحب أن نراهم فى غير ضرورة ماسة ؛ أو حاجة ملزمة . وليس علينا بأس من أن ندع صدقى باشا يمثلنا كما يشاء بعد أن تركناه يمثل بنا كما أحب .

رئيس وزرائنا اذا تلميذ لعظيم ايطاليا ؛ ومصر تلميذة معه لإيطاليا ، والايام دول ، والخطوب تختلف . فقد كانت مصر فيما مضى من الزمان قدوة اليونان والرومان ، فأصبحت الآن تلميذة لروما . ولكن الناس لا يقرءون كلام رئيس الوزراء كما ينبغي أن يقرأ ؛ ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم . وهم من أجل ذلك يتعرضون لضروب من المكروه ، وفنون من خيبة الأمل . ولو قد قرأوه كما يقرأ الأبطال ، وفهموه كما يفهم عظماء الناس ؛ لعرفوا ما تضمره لهم الايام من خير وشر . فاستعدوا للأحداث قبل وقوعها وتأهبوا للنائبات قبل نزولها . ولكنهم يمرون بكلام الرئيس كما يمرون باى كلام آخر يفهمونه فهما يسيرا ناقصا ؛ ويحققون جملته ولا يحققون تفصيله ؛ ثم يدعونه وكأنهم لم يقرأوه ؛ وما على هذا الوجه يقرأ كلام البلغاء . ورئيس وزرائنا بليغ يقول الشيء الكثير في اللفظ القليل ؛ ويؤدى المعنى الغريب في اللفظ القريب ؛ واذا كنت في حاجة إلى أن تقام لك الادلة على هذا ، فقف معى وقفة قصيرة عند ختام الرسالة البرقية التي أرسلها عظيم مصر الى عظيم ايطاليا ؛ فسترى ان فيه اسرارا خطيرة ؛ ونذرا مخيفة مزعجة . وان من الحق على المصريين لأنفسهم ان يستعدوا ويتهيأوا لما ستتكشف عنه الايام ان مدت للرئيس أسباب الحكم .

أي شيء هي هذه الاعمال التي سيلتمس فيها صدقى باشا أمثلة صالحة؟ اما دستورنا القديم فقد دفنه رئيس الوزراء ؛ وأعلن انه لن ينشر ؛ ولن يذوق الحياة مرة أخرى ، وقد استحدث الدستور الذى يراه كافياً لمصر ، وملائماً لحاجتها . وأما الصحف فقد فرض عليها رئيس الوزراء ما شاء ، مما يحقق لها الحرية الكاملة ، ويتيح لها التعبير عما ترى بما لم يتح لغيرها من صحف البلاد المسرفة فى الديموقراطية . واما المعارضون فقد اخذهم رئيس الوزراء بالنظام الجديد في حزم وقوة ، حتى آمنوا به ، وأذعنوا له ، واطمأنت نفوسهم اليه . وأما الادارة فقد أصلحها رئيس الوزراء حتى استقام فيها المعوج ، واستقر فيها المضطرب ، وأمن الناس معها على كل شيء ؛ وأصبحت مثالا ستتأثره الامم الراقية التي تطمع فى أن تكون لها ادارة حسنة . وأما ثروة الدولة وثروة الشعب ، فقد بلغ بهما رئيس الوزراء أقصى ما تطمع فيه مصر من الثبات واليسر حتى أصبحنا بفضله محسودين ؛ يجوع الناس ونحن شباع ؛ ويظمأ الناس ونحن ملاء ، وتصفر أيدى الناس من كل شيء وتمتلئ أيدينا بكل شيء . اذن فماذا يريد صدقى باشا أن يتعلم من موسوليني ، وفيم يريد صدقى باشا أن تتلمذ مصر لإيطاليا؟ . ألست ترى معى ان كلام رئيس الوزراء غامض يحتاج الى توضيح ككل كلام بليغ ؟ . بلى ولم أكتب هذا الفصل الا لأضع أمامك بعض الامثلة التي سيلتمسها صدقى باشا عند السنيور موسوليني .

النظام في مصر مستقر ، ولكنه مستقر بقوة الجند ؛ وما أظن أن هذا الكلام يجعل للنيابة على سبيلا . فانا لا أذكر الجند الأجنبى الانجليزى ، ولا أزعم أن رئيس الوزراء يستند الى حراب الانجليز . وانما أقول أن النظام الذى استحدثه رئيس الوزراء مستقر بقوة الجند المصرى ؛ وواضح ان الجيش والشرطة انما انشئا للدفاع عن الوطن واقرار النظام فيه . نظام رئيس الوزراء اذن محتاج الى أن يعتمد على قلوب الشعب ؛ لا على رماح الجند وعصى الشرطة ، وليست بلاغة رئيس الوزراء مهما يكن بليغاً ، ولا فصاحة رئيس الوزراء مهما يكن فصيحا ، ولا سخاء رئيس الوزراء مهما يكن سخيا . ليس شيء من هذا كله يستطيع أن يكسب قلوب الشعب للنظام الجديد . وانما أمر هذا كله كأمر القوة والبأس ، يدور كل شيء فيه على الترغيب والترهيب وكل ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، فهو موقوت يزول بزوال الرغبة والرهبة . فلابد اذن من عماد ثابت ؛ ودعامة باقية لهذا النظام الجديد . وقد وجد السنيور موسوليني لنظامه هذه الدعامة ؛ وذاك العماد ؛ فاصطنع فنا جديدا من فنون التربية يأخذ به الجيل الناشئ أطفالا وصبيانا وفتيانا ؛ يجندهم نوعا من التجنيد ؛ ويعلمهم فنونا من التعليم ، ويمرنهم ضروبا من التمرين ، وينتهي بهم من هذا كله الى أن الفاشي وحده يجب أن يكون قوام الحياة الايطالية . وقد أصبحت ايطاليا بفضل هذا النظام الجديد اشبه شيء باسبرتا في التاريخ القديم . فهذا مثل قد يجتذبه رئيس الوزراء ، فيقيم التربية والتعليم عندنا على النظام الجديد ، ليكسب له قلوب الاجيال الناشئة بعد ان لم يستطع أن يكسب له الا اجسام الاجيال التي نشأت بالفعل . وتثبيت هذا النحو من نظم التربية والتعليم يحتاج الى

أن يخلص المربون والمعلمون والأساتذة لهذا النظام الجديد . وقد عرف السنيور موسوليني كيف يكسب هؤلاء الناس لنظامه .

فأخذهم جميعا بالأيمان المحرجة ، يقسمونها على الاخلاص للنظام ، وعلى أن يكون تعليمهم ملائما له ؛ وخيرهم بين هذا القسم وبين الفصل من مناصبهم . فأختار منهم فريق بقى في مناصب الدولة ؛ وأمتنع منهم فريق فصلوا من مناصب الدولة فصلا . ولم يقتصر هذا التغيير على المعلمين في المدارس الاولية والثانوية ؛ بل تناول أساتذة الجامعات أيضا . فهذا مثل آخر من الامثلة الصالحة التي قد يلتمسها رئيس الوزراء عند موسوليني .

ولا بد لاستقرار النظام من أن يفهمه الحكام على وجهه ، ويمرنوا على جملته وتفصيله ، ويؤمنوا به ايمانا صادقا قويا ، ومن أن يكون هؤلاء الحكام المؤمنون بالنظام كثيرين يمكن أن يتنقل بينهم الحكم ، وقد عرف موسوليني كيف يهيئ هؤلاء الحكام لنظامه فجعل نفسه أستاذا ؛ وجعل حكومته مدرسة ، وجعل يمرن الوزراء على الحكم ، حتى اذا أحسنوه وأتقنوه عزلهم من الوزارة عزلا ، وادخرهم ليوم مقبل أو نقلهم من الوزارة نقلا ، ومرنهم على فن آخر من فنون الحكم . وكذلك يغير موسوليني وزراءه من حين الى حين ؛ لا سخطا عليهم ، ولكن تعليما لهم وتأديبا . فهذا مثل اخر قد يلتمسه رئيس الوزراء عند موسوليني ، ولن يكون غريبا من الامر ان يمد الله لصدقي باشا في أسباب الحكم أن يعود الى مصر بعد أسابيع ؛ فيمتحن وزراءه ، ويعزل منهم من أتم التعليم ، ليعلم مكانهم قوما آخرين ، ويفصل منهم من يرى ان ليس فيه خير للنظام الجديد

ولا بد لإقرار النظام من أن تستمتع الدولة بهذا الشعور القوى بالعزة والسلطان ، ومن أن تكره الدول الاجنبية على أن تعرف لها حرمتها وعزتها وقد عرف موسوليني كيف يلغ هذا من خصوم ايطاليا وأصدقائها فاستعمل العنف فى السياسة الدولية ولم يحفل بالمجاملات المألوفة كثيرا ، وأخذ يلقى خطبه المزعجة فتقع في أوروبا وقع الصواعق . وأنا أعلم أن من العسير على صدقى باشا أن يقتدى بموسوليني في هذه الناحية . ولكن اذا لم نستطع أن نخيف الانجليز جهراً بالخطب والجيوش والاساطيل ، فقد نستطيع بأن نخيفهم سراً بالزيارات والمقابلات والمخالفات . فأنت ترى أن رئيس وزرائنا قد كان بليغاً حقا في رسالته إلى عظيم ايطاليا وأن مصر لم تخطئ حين أرسلته في بعثة قصيرة الى روما ليتعلم على الاستاذ الاعظم فن الحكم واقرار النظام . صدقني لا ينبغي أن يقرأ كلام رئيس الوزراء كما يقرأ كلام الناس ، وانما ينبغى أن يحلل ويمحص ويقلب على جميع وجوهه ، فان في نفس رئيس الوزراء من الأسرار الغامضة ما قد يضيق به وادى النيل كله . وحسبك أن الله قد جمع مصر كلها فيه .

طه حسين

(*) السياسة ، ٤ أغسطس سنة ١٩٣٢ .